الانسجام الصوتي في القرآن الكريم

«سورة الكهف أنموذجا»

الأستاذة: بن عياد خليدة

المركز الجامعي البويرة

تدخل الأصوات اللغوية في عملية التأثير و التأثر بين بعضها البعض و نلحظ ذلك جليا في الكلام المنطوق، أما نسبة التأثر فتختلف من صوت لآخر و من لغة لأخرى.

من أجل ذلك تسعى هذه الدراسة للكشف عن جانب ضئيل من الفنيات الأسلوبية التبليغية في اللغة العربية و بالتخصيص تلك اللغة الرائعة التي جاء بها القرآن الكريم، تلك الرسالة السماوية التي تعتمد اللغة حجة و إعجازا في الخطاب. ثم تقتصر الدراسة على القصة القرآنية ذلك البناء المحكم الذي ما يزال محط أنظار الكثير من الباحثين باختلاف تخصصاتهم و مناهجهم.

إن تحليل الانسجام كما يراه بعض الباحثين يحتاج إلى تحديد نوع الدلالة التي تمكننا من ذلك و هي دلالة نسبية أي أننا لا نؤول الجمل و القضايا بمعزل عن الجمل و القضايا السابقة عليها، و تحديد نوع الدلالة و إن كانت نسبية أمر مهم في بداية أولى خطوات التحليل[1]. لذا حاولنا في هذه الدراسة المختصرة إحالة البنى الصغيرة إلى بنية النص الكبيرة. فالنص و إن كان مجموعة من الوحدات الدلالية الصغرى فإن استقراء الدلالة منه لا يكون إلا بالاستناد إلى وحدات أكثر اتساعا من الجملة و هي الخطاب.

«المعنى المقصود الشامل» Benveniste و هذا هو المفهوم الذي عبر عنه L'intenté . [2]

إضافة إلى أن هذا الاستقراء ينطلق من الظروف الحافة بإنتاجها و وسيلتها في تفجير الخطاب و تفكيك الوحدات المكونة له، ثم إعادة تركيبها و بنائها وفق جهاز نظري منسق التأليف.

علما أن هذه الدراسة تركز على الفواصل في الآيات الكريمات ذلك لأنها (الفواصل) تشغل حيزا هاما يرتبط بدلالة النص، فالعرب أهل هذه اللغة فطروا على تذوق الفواصل و الخواتم، فتزيد معاني المثل و الحكمة وقوعا في نفوسهم، إذا ما كانت موزونة مقفاة، إذ نشأت لديهم شاعرية على التمييز بين الكلام المشتمل على الإيقاع و النغم في نهاية العبارة، و نلحظ أسمى أنواع الموسيقى في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوزان الشعر و قوافيه، و كذا نثرا في الخطب و الوصايا، إذ التزموا بترديد أصوات بعينها في نهاية العبارات و الجمل، لذا نجد القرآن لما نزل جاءهم بلغة فاقت ما نسجوه من كلام جميل متناسق الأصوات.

لقد كانت فاصلة محل دراسة الأولين و المتأخرين، فمثلا نجد أن رومان ياكبسون Romen Jakobson في تحليله القصيدة القطط لشارل بودلير *Les chats* de Charles Baudlaire يجعل القافية أول منطلق في التحليل لأن الكلمة الأخيرة في البيت الشعري لها سيطرتها على هيكله التركيبي، و هو يقترح دراستها في شكل ثنائيات مقارنة على المستوى الصوتي تدرس خصائص حروفها و صفاتها (كالجهر- و الهمس – و التفخيم – الترقيق ...) و يدرس أيضا طولها و قصرها وفقا لعدد حروفها، هل هي بسيطة أم مركبة ، فالكلمة الأخيرة في التركيب تلعب دور مولد صوتي معنوي **Phono Sémantique** [3]

أما قديما فإن كتب اللغة و التفسير مملوءة بالإشارات التحليلية للفاصلة القرآنية و ما لها من دور في تدعيم المعنى. و مما لا شك فيه أن القرآن الكريم اختار أعذب الفواصل و أنقاها لعرض موضوعاته، و لعل السر في هذا يعود إلى القيمة الجمالية و الفنية للفاصلة، فضلا عن مناسبتها للغرض المقصود من الآية بأن تأتي ممكنة في مكانها مستقرة في مواضعها مطمئنة في قرارها غير نافرة و لا قلقة متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما [4].

التكرار الصوتي:

الصوت / القصة	الباء	الدال	الراء	العين	لقاف	لطاء	للام	لميم	لصاد	لنون
أصحاب الكهف	15.7%	68.4%	/	5.2%	5.2%	5.2%				
صاحب الجنتين	21.4%	28.5%	% 28.5	7.1%.	7.1%.		7.1%.			
موسى عليه السلام	21.7%	%3.	%0.8	/				%87.	%43.	
ذو القرنين	29.4%	8.5%	% 29.4	11.7%	%58.		%58.	%58.		%58.

1- تكرار أصوات منفصلة:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الباء: و هو الصوت الصامت الانفجاري شفوي يعطي قوة في فاصلة الآيات، تكرر بنسبة 17.7% في كل القصص، و هو يحمل معنى الإقرار بالحقيقة و الاستغراب من بعض الحوادث ثم الصمت أمامها لعدم وجود تفسير لها. « أم حسبت أن أصحاب الكهف كانوا من آياتنا عجبا » آ 9 و إن كان صوت الباء يضاف إلى قوة الدال في الجهر بالحقائق.

الدال: و هو صوت أسناني يتموضع فيه اللسان خلف الأسنان مدة ثم ينفتح بمقدار، مثله في ذلك مثل الفتية في ستر كهفهم المسدود إلا من فجوة، ومن صفات هذا الصوت أنه صامت انفجاري (مرقق – مجهور – شديد) « تتكون الأصوات الانفجارية بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع من المواضع، و ينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا»[5] .

و المعنى أنه ساكن لكنه يحمل بداخله قوة كامنة تنفجر بعد حين، و تتمثل هذه القوة في الحقيقة التي أظهرت للناس بعد أن استفاق الفتية من سباتهم العميق، حقيقة البعث و النشور، ثم حقيقة أن الرزق لله يعطيه من يشاء و ينزعه عمن يشاء – في القصة الثانية – و التي لم يدركها الرجل إلا بعد زوال الجنتين، و كذلك موسى – عليه السلام – كان يطلب معرفة علوم «رشدا» أي علم خفي عنه و لم يعلمه إلا بعد التجارب الثلاث، أما قصة ذي القرنين فبناء السد كان الفرج و النجاة للقوم بعد الشدة و العسر.

الراء: و هو أكثر الأصوات ورودا في القصص و بخاصة مميزة قصة موسى عليه السلام حيث كان السمة البارزة على الفواصل و لعل هذا يتماشى و الدلالة العامة في القصة، فمن بين صفات الراء أنه صوت مكرر « يتكون صوت الراء العربي بأن تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعا سريعا و من هنا كانت تسمية هذا الصوت بالمكرر، و يحدث الوتران الصوتيان نغمة عند نطق الراء، فالراء العربي صامت مجهور لثوي مكرر» [6].

- تحتوي القصة معنى التكرار الذي يفيد التذكرة و التأكيد على الفكرة كقوله تعالى:

« ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا » آ 72.

« ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا » آ 75.

و كذلك كان الصوت المكرر منسجما مع فعل الرجلين و حركتهما القائمة على الترحال و التجوال فهما في حالة حركة و تتابع من مكان إلى آخر يزيد عجبا و غرابة.

كما تكرر هذا الصوت أيضا في قصة ذي القرنين دلالة على معنى التكرار في الفعل و كذلك على معنى التنقل و التتابع من موقع إلى آخر، بينما لم يرد إطلاقا في قصة أصحاب الكهف لأن الفتية مكثوا في مكان واحد و لم يبرحوه زمنا طويلا، ثم في قصة صاحب الجنتين ورد الصوت مرات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قليلة حيث لم يرد فيها تكرار لمعاني التذكرة و لا حركات كثيرة داخل القصة.

- تكرار أصوات مجتمعة:

إن الرابط الأول في القصص معنوي أولا و قبل كل شيء، يتمثل في قضية التوحيد التي تقررت من بداية السورة إلى نهايتها، و فيما يلي نبين نوعا آخر من التكرار ساهم في ربط أجزاء النص و تمثل في تكرار أصوات مجتمعة أي كلمة بعينها أو جملا كاملة:

أحدا: تكررت في القصة الأولى ثلاث مرات و في مواضع مختلفة، لكن جميعها في صيغة النفي: - **«..... وليتلطف و لا يشعرن بكم أحدا »** آ **19.**

- **«..... و لا تستفت فيهم منهم أحدا »** آ 22.

- **«..... و لا يشرك في حكمه أحدا »** آ **26.**

فالآية الأولى تحذير للفتية فيما بينهم من أن يكتشف أمرهم أحد من القوم ،وتحذر الآية الثانية كافة العباد من الجدال في أمر الفتية بغير علم مع أي كان فذلك من أمر الله . لنصل أخيراً إلى الآية الجامعة للدلالة الإجمالية في القصص بأن الله - عزوجل - وحده المتفرد في الحكم ،أحد لا شريك له في أي شأن من الشؤون ، لذا يرد كل ما اختلف فيه إليه وحده **"واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مكبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا "**آ**27**

و يتأكد هذا المعنى مباشرة في القصة الثانية بجلاء حين تتكرر العبارة التالية مرتين:

« لكنا هو الله ربي و لا أشرك بربي أحدا » آ 38.

« ..... و يقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا » آ 42.

و هذا تأكيد على ترسيخ مبدأ الوحدانية، فتكرار الصيغة يزيد في دعم الفكرة أكثر فأكثر.

أما في القصة الثالثة فأول ما يشد اهتمامنا من تكرار هو عدم استطاعة الصبر حيث نجدها في:

- « قال إنك لن تستطيع معي صبرا » آ **67.**

- « قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا » آ **72.**

- « قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا » آ **75.**

- « ..... ما لم تستطع عليه صبرا » آ **78.**

- « ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا » آ 82.

جميع هذه الآيات مشتركة الفواصل إذ تنتهي بلفظ واحد هو "صبرا" مع الاشتراك في المعنى، و التكرار يفيد التذكرة لما أكده في البداية « قضية التوحيد ». و التأكيد في نفس الوقت على أن العقل البشري لن يستطيع احتمال أمور خفيت عنه حقيقتها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما القصة الأخيرة فقد تكرر فيها مبدأ إتباع السبب و هذا نجده في الفواصل التالية:

- **« فاتبع سببا » آ 85.**
- **« ثم اتبع سببا » آ 89.**
- **« أتيناه من كل شيء سببا » آ 84.**
- **« ثم اتبع سببا » آ 92.**

- يتأكد من هذا أن الله عز وجل يرزق العامل المتسبب، فالآيات تصور ذا القرنين و قد جاب مشارق الأرض و مغاربها متسببا في فعل الخيرات بعدما آتاه الله مفاتيح الأمور فأخذ بها،

و كأن هذه القصة خلاصة لما سبق، فبعدما تأكد البعث و النشور في قصة أصحاب الكهف و أن الرزق لله يعطيه من يشاء و ينزعه عمن يشاء.

- و هما أمران غيبيان يوضح لنا في قصة موسى أن المستقبل من علم الغيب استأثر الله به لنفسه – عز و جل – لا يفتحه إلا بمقدار فلا يعلم أحد ما هو كاسب غدا و لا بأي أرض يموت.

و في الأخير يرشد الله عباده إلى مفاتيح الحياة بأنه جعل فيها أسبابا، فاتخذوها واسعوا في الأرض جاهدين، و هي رسالة لكل البشر.

و بعد هذا يتبين لنا أن التكرار غاية مهمة تساهم في تدعيم الانسجام النصي « إن التكرار يعد من أهم الوسائل المساهمة في تدعيم التماسك النصي و يوظف من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكونة للنص » (7)

الانسجام الصوتي:

من المعلوم أن مادة الصوت هي مظهر للانفعال النفسي هذا الانفعال الذي يتسبب في تنويع الصوت من ناحية المبدأ و الغنة أو اللين و الشدة و هو الذي يحيل الصوت إلى الايجاز و الاجتماع أو الإطناب و البسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة و الارتفاع و الاهتزاز و بعد المدى و نحوهما، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.(8)

و لما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها و حركاتها و مواقعها من الدلالة المعنوية استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو و الاعتراض مثل ما هو الشأن في أساليب الأدباء بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة و ما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي و ارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها و موقعها و سدادها لم يتهيأ ذلك و لا اتسعت له اللغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بكلمة واحدة (9) .لقد احتوت سورة الكهف على تسلسل صوتي من حيث الصفات و المخارج و ائتلاف الوحدات فيما بينها. فإذا أسقط واحد من هذه الأصوات أو أبدل من مكانه أو بغيره مما لا يناسبه في مخرجه أو إحدى صفاته أحدث ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا في النغمية الممتعة Mélodies. ولحدوث الانسجام النصي تضافرت عدة عوامل لتحقيقه من بينها:

1- التكرار الصوتي المتجانس الذي أضفى على النسيج الصوتي للسورة إيقاعا جماليا يؤثر في الملتقى أثناء السماع مثل التناسق المذهل بين صوتي الدال و الباء، فهما يحملان نفس الصفة و إن اختلف المخرج.

2- التوزيع في الفواصل، فمثلا في قصة أصحاب تنوعت مخارج الأصوات، في حين تكررت الأخرى فنجد أحيانا تتالى في حرف الدال ثم يقطع صوت الطاء أو الباء ثم يعود ثانية بالدال و هكذا....

3- تمتاز التراكيب والفواصل بطول النفس حيناً فتنسجم ، أو بالقصر حيناً آخر فتتماثل إذ يتساوى التركيب الأول والثاني أحياناً في الألفاظ والكلمات من حيث الكم والوزن إذ لو قطع التركيب الأول وحددت تفعيلاته وأجزائه لكانت هي نفسها في التركيب الثاني الذي يتصل بالاول في المعنى والمدلول ليكمل الثاني معنى الأول .

مثال : **"وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنايوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا "**[19]

وبالمقابل نجد الآية الموالية تبدي نتيجة ظهورهم وتضع نهاية لخوفهم بعد أن اكتشفوا وعادوا في نومتهم الأبدية :

- **"وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون في أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا "** [21]

وتسمى هذه الحالة في باب البلاغة " السجع والازدواج"،وفيه يقول أبو هلال لعسكري "لايحسن منثورالكلام ولايحلو حتى يكون مزدوجا، ولاتكاد تجد لبليغ كلاما يخلوا من الازدواج ولو استغنى كلام من الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج منه " (10)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1- محمد الخطابي ، لسانيات النص (مدخل إلى الانسجام النصي) ،المركز الثقافي العربي بيروت1991،ط1،ص.78.

2- محمد الناصر العجيمي ، في الخطاب السردي (نظرية قريماس) ،الدار العربية للكتاب 1993،ص.26.

3- توفيق الزيدي ، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه ، الدار العربية للكتاب ،طرابلس 1984/ص.66.

4- عبد الفتاح لاشين ، الفاصلة القرآنية ، دار المريخ للنشر ،دت ،ص.155.

5- محمود السعران ،علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دارالفكر العربي القاهرة،دت،ص.187.

6- نفس المرجع السابق ص.166.

7- صبحي إبراهيم الفقي ،علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية في السور المكية)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2000،ج2 ،ص.21.

8- مصطفى صادق الرافعي ،إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ،ط5 ،دب ،دت،ص.212.

9- نفس المرجع السابق ص.225.

10- أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)،دار الكتب العلمية

ط1 ،دب،1981 .

مقتضيات المخاطَب في عملية التخاطب عند علماء العرب القدامى

في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة

بقلم /أ. فاتح زيوان

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة تبسة – الجزائر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com